الضفة الثالثة

كمال ممدوح حمدي

للفـرح بعض طقـوس الحزن !!

هذه اللوحة واحدة ضمن مجموعة لوحات فرغ منها مؤخرا الفنان عبدالعزيز اليحيا، لم تعرض، ولا اظن ان فرصة قد اتيحت بعد لأحد ليراها مباشرة، ولهذا السبب - ولان الالوان تحمل مسئولية جانب كبير في مهمة التوصيل - اراني مضطرا الى وصف سريع يعوض عن الطباعة بلا الوان.

مفردات الاشكال شخوص، ثلاثة، وثلاثة بيوت، وارض وسماء، وعين خارج اللوحة شديدة القرب منها - كما سنرى - حتى تصبح جزءا اساسيا من اللوحة رغم خروجها عن مسطحها كله..

الأرض والبيت الاكبر - الى اليسار - بنفس اللون تماما، لون رملي حرقته الشمس، والبيت الأوسط بلون وردي، والأخير الى اليمين بلون أصفر رملي ايضا ولكنه اقل من لون الأرض درجة ما .. والسماء تدويم من الزرقة المشوبة بلون الرمل فوق خلفية بيضاء معكرة..

الشخوص مخلوق خرافي الحجم والهيئة، بعين واحدة في وسط الجبهة، وبيد واحدة، طرح ارضا - لم يصل الأرض بعد ولم يستقر على شيء، ماتزال يده الوحيدة متصلة بيد احد الواقفين، كانما كان يراقصه ثم سقط، وغريب ان تطول يد الساقط الى الأرض يد الواقف الممدود في الفراغ، هذا الأخير رسم بلون احمر داكن كلون القلب او الكبد، على حين رسم الثاني (الى اليسار) بلون الأرض بفارق درجة ما، ظللت حدود شكله باللون البني.. هناك منزل واحد - اليسار - له باب اخضر، والبيتان الآخران يديران الظهر..

مفردات بسيطة نقول لأول وهلة جُملا بسيطة حتى نرى، فهناك «رقص»، كرقص البالية، وهناك موت تقوله الجثة الساقطة، وتقوله البيوت المفرغة من سكانها لان لا شيء يشعرك بان ثمة حياة فيها وقد اغلق الباب الأخضر الوحيد، ونزعت النوافذ حتى غدت ثقوبا داكنة، وحفرت مياه الأمطار التي تساقطت من مساربها في البيوت خطوطها الشبيهة بالكسر او الحفر، لا احد يشهد مايجري خارج البيوت الذي يمارس كطقس في الفضاء وان كان على مقربة من المنازل..

الراقص الأحمر يشرئب فيصل طوله الأرض بالسماء، أكثر طولا من ارتفاع منزل من طابقين تعجب كيف يمكن ان يمر من الباب الأخضر، حتى وان كانت المنازل بعيدة، ولكنه وضع لا يمكن ان يتحقق الا اذا كانت العين ترى عن كثب، على مقربة من جسم الراقص حتى تكاد تلامسه، يتجه بصرها من الركن الأيسر السفلي، من قرب الراقص الثاني الذي يبدو اقل - على عكس المفترض - حجما فيبدو المنزل القريب من العين اقل اضاءة من الآخر على الطرف الأيمن البعيد.... اظن ان الشخص البعيد - الأيمن هو الأطول - بعكس المنظور، لانه يحمل حرفا من حروف الرمز، في حين الثاني علامة من علامات التشكيل كالضمة او الفتحة او الكسرة، كما قد نرى ايضا..

وإذن فحروف الرمز في الشخوص اثنان، الأحمر الراقص، والأزرق الساقط أساسا..

الأحمر لون ناري، او دموي، والأزرق لون مائي رسم بلا كثافة لونية مشبعة، يبدو كالوان الماء اكثر مما تبدو بقية الأشكال، المائية أيضا في درجة اللون المبسوطة بلا كثافة..

الرقص يمكن ان يكون رقص فرح بأيدي تتوجه الى السماء كسيوف او رماح او حراب، تصل بالمشاعر الى ذروتها حتى تغدو الذراع اطول من الجسد، ولكنه رقص فرح في سياق موت بهذه الجثة العملاقة، وبارجل مسمارية شقت الأرض وغاصت فيها، وبتدويم عاصف في السماء يعطي للموضوع عنوانا في اول الصفحة.. رقصة فرح في سياق موت، او رقصة موت مفعمة بالأمل في اتجاه حروف الاشارة (الأيدي والساق المرفوعة) نحو البيوت، حيث البحث عن امان ما، وابتهال بيدي الأحمر الى السماء، وهاهي جثة العملاق تسقط والأمل يزيد..

وإذن لنقرأ احتمالي «الجملة» من جديد، تلك الجملة التي تبدو بسيطة للوهلة الأولى، والمكونة من حروف محدودة للرمز: «الراقصون فرحا في غمار الموت»، او «رقصة الموت الجنونية طقس للأمل والحياة»، فاي الجملتين اراد الفنان، او بغض النظر عمّا اراد، اي الجملتين اكثر مثولا في التشكيل؟

ولنجرب محاولة اخرى:

اللوحة مقسمة الى ثلاثة مستويات، لا تقع على مسافة الطول او العرض، وإنما على امتداد العمق.. بيوت في العمق، هذا مستوى، وامامها الجثة الساقطة للمخلوق الوحشي الأزرق على مستوى آخر، والراقصان على مستوى ثالث، والعين الناظرة والمشكلة جانبا من اللوحة على مستوى رابع، كمراقب لما يحدث.. في المستوى الأول والأبعد بيوت عربية، اصالة وتراث، عربي بالتاكيد، وفي المستوى الثالث راقصان كان قد حال بينهما ذلك الوحش.. هاهو يسقط، وها هما يرقصان فرحا بالعودة للديار التي اصبحت على بعد تطوله الساق الممدودة، تشير الى البيوت وتعلن القدرة على تخطي الساقط.. الراقص الأيسر شرح للأحمر.. الأحمر هو الأساس، لم يتحقق له هذا الفرح الا بلونه، بدم مراق، قادر على الاجتياز كما يقول تشكيل كلمة الفرح (الأيسر)، بلون الأرض والبيوت، وفي الوسط منزل وردي، به باب مفتوح ينتظر عودة القادم هو الباب الوحيد المفتوح فوق أعلى (الدور الثاني) لون الأمل الوردي.. ذلك المخلوق الوحشي كان يهدد بضياع قيمة عربية أصيلة (البيوت) من أهلها.. شديد الضخامة بحجمه وشكله، وبعينه الواحدة مثل الكوكلوكس التي تجاوز من الأمر الا ماتراه عين واحدة فقدت موضوعيتها، منحازة للذات، مخلوق مرعب مخيف كما اراد ان يبدو، تبين وهو يسقط انه كان خرافة، فهو لا يزيد الآن على قربة ماء، بلون الماء الأزرق وبالالوان المائية الدرجة، وبجسم ذي تكوين انثوي، لقد كانت هناك كارثة او ازمة، ذلك التدويم العاصف في الهواء عنوان عليها، سقط شبحها، وهاهو التدويم يدور في الفراغ مبتعدا عن سماء مسرح الكارثة.. هل هذا ماتقوله الجملة القصيرة في حروف الرموز وعلامات التشكيل فيها، يزكيها اخضرار الباب، وانفتاح الآخر: رقصة الفرح بالعودة للديار؟

ولنجرب محاولة رابعة:

الراقصان غاصبان، قدما على حين غفلة حيث البيوت نائمة كانت، كمن لا احد بها، اقتحما البيوت واخرجا اهلها، رجالا ونساء يجمعهم هذا الأزرق المسالم، صرعا الأزرق وشوهاه فغدا بعين واحدة.. هما الآن منتشيان يتاهبان لاغتصاب البيوت بعد ان يعبرا على الصريع، يرقصان رقصة انتصار محمومة، ولكن شيئا ما منعهما حتى الآن، فالخط بين الأرض وبين البيوت كسلك شائك.. ان الصريع يبدو ملفوفا في هذا الأزرق، يلقى فوق اصفر رملي حرقته الشمس.. هل تؤدي حروف الرموز هذه الجملة: «جنون الرقص على جثة الضحية»؟.. ربما ايضا..

الجملة في اللوحة قصيرة الى حد الاختزال، ولكنها مفتوحة على كل الاحتمالات.. هذه قيمة الفن، والا ترك الفنان عناءه وكتب الجملة بحروف الكلام المباشر.. جملة مسموعة اكثر منها مرئية، فالشخوص الثلاثة معا تشكل «مفتاح صول كبير» الاستهلالي لكتابة نوتة الموسيقى.... موسيقى للفرح او للحزن كما ترى او تسمع انت، فقط اضيف لك ان اللوحة رسمها الفنان في لحظة عارمة مع بداية «ازمة الخليج»، واعد القراءة اذا شئت ..!